دراسة الدكتور غرانت في أصل النساطرة:

وقد كادت هذه المسألة (مسألة أصل النساطرة) تبقى غامضة فيسدل الزمن الستار على حقيقتها لولا ظهور أحد الباحثين قبل حوالى ١٤٠ سنة، فأخذ على عاتقه دراسة هذا الموضوع دراسة علمية عملية، وقد ساعدته الظروف التي وجد فيها، وهي أنه قضى عدة سنوات في منطقة النساطرة فتجول بينهم في مواطنهم في جبال تركيا وإيران والعراق، وبعد استقصائه للحقائق واستدلاله بالبراهين القوية الحجة توصَّل إلى أن النساطرة في منطقة الجبال هم أحفاد اليهود الذين سباهم الآشوريون بعد قضائهم على مملكة إسرائيل إلى المناطق الجبلية الكردية الموزعة بين تركيا وإيران والعراق الحالية وهؤلاء هم الأسباط العشرة الذين اعتبروا بحكم المفقودين لاختفاء أخبارهم نهائياً بعد أن تنصروا إثر ظهور النصرانية، ثم تبنوا المذهب النسطوري الذي حافظوا على تعاليمه وطقوسه ولغة كتبه الأصلية في مواطنهم الجبلية المنعزلة أكثر من ألفي سنة. وهذا الباحث هو الدكتور غرانت، الطبيب والمبشر الأمريكي الذي كان قد حل بين النساطرة في مواطنهم على رأس بعثة تبشيرية أوفدها مجلس البعثات البروتستانتية الأمريكية سنة ١٨٣٥ م، وبحكم مهنته كطبيب استطاع أن يتوغل بين القبائل المسيحية النسطورية والقبائل الكردية في تلك المناطق الجبلية المنيعة والمحفوفة بالمخاطر، فاتخذ الدكتور غرانت أورمية مركزاً لعمله وأسَّس عشر مدارس في القرى المسيحية في مختلف أنحاء المنطقة ومدرسة واحدة للبنات داخلية في أورمية[٩٣]. وقد تعلَّم الدكتور غرانت لغة النساطرة التي يتفاهمون بها ما بينهم (اللهجة الآرامية السريانية المعروفة بالترجوم) وترجم بعض أقسام من الإنجيل ومن العهد القديم إلى هذه اللغة وجلب مطبعة لطبع الكتب بها، كما تعلم اللغة الكردية مما سهل عليه إنجاز مهمته. وقد قضى الدكتور غرانت هو وعائلته ست سنوات في

---

(٩٣) أورمية بلدة إيرانية تقع قرب الساحل الغربي للبحيرة المعروفة بنفس هذا الاسم (بحيرة أورمية). هي مسقط رأس زرادشت ومركز للمجوس عبدة النار، كما أنها مركز من أعرق مراكز النصرانية في العالم، كنيستها من أقدم الكنائس السريانية الشرقية ككل الكنائس الجبلية. غزتها الفرق المسيحية بمذاهبها المختلفة كفرق الروس الأرثوذكس والرومان والفرنسيين الكاثوليك والمعمدانيين الأمريكان والبروتستانت الإنكليز كل من هؤلاء يبذل أقصى الجهود لجر أتباع هذه الكنيسة إلى مذهبه، سكانها حسب إحصاء سنة ١٩٥٦ (٦٧١٥٨٠) نسمة أكثرهم من الأتراك وفيها أقليات من الأرمن والنساطرة.

المنطقة الموزعة بين تركيا وإيران والعراق، وبعد دراسة عميقة لعادات هؤلاء النساطرة وتقاليدهم وطقوسهم الدينية واتصالاته بالشخصيات الدينية والقبائلية من النساطرة واليهود بخاصة اتصاله ببطريرق النساطرة الأكبر (المارشمعون) الذي كان مقره في «قوجانس» التابعة لقضاء (جولامرك) التركي، توصل إلى أن النساطرة القاطنين في كردستان هم من أحفاد الأسباط العشرة الذين سباهم الآشوريون وأبعدوهم إلى مناطق آشور النائية، وهي المناطق التي ورد ذكرها في التوراة، أي «حلح» و(خابور نهر جوزان) و(هارا) ومدن مادي. وهؤلاء هم الاسباط العشرة الذين اعتبروا مفقودين لانقطاع الاتصال بهم وطمس أخبارهم بعد تشتيتهم في مناطق كردستان الجبلية النائية فأُطلقت عليهم تسمية «الأسباط المفقودة» (The Lost Tribes) وقد كان هؤلاء على رأي الدكتور غرانت يهوداً عندما نفاهم الآشوريون إلى هذه المناطق الجبلية البعيدة[٩٤]، ثم لمَّا ظهر المسيح بعد أكثر من سبعة قرون إتخذ أكثرهم بل كلهم تقريباً تعاليمه ديناً لهم وذلك نتيجة إرسال البعثات المسيحية التبشيرية التي أوفدها الحواريون أتباع المسيح إلى هذه المناطق للتبشير بتعاليم الدين المسيحي الجديد بينهم مما يدل على أن الحواريين كانوا على علم بوجود الأسباط العشرة في تلك المناطق وكانوا على اتصال مسبق بهم. وقد حافظ هؤلاء اليهود المتنصرين على تقاليدهم وعاداتهم القديمة التي هي نفس تقاليد وعادات ولغة اليهود القاطنين إلى جانبهم في تلك المناطق، وهم قلة بينهم بقوا على يهوديتهم، حتى أنه كان من الصعب التمييز بين النساطرة وبين اليهود القاطنين في المنطقة نفسها حيث كان كلاهما يتكلمان بلغة واحدة ويلبسان لباساً واحداً. وقد أورد الدكتور غرانت أدلة كثيرة بصورة مفصلة لدعم ما توصل إليه بخصوص أصل النساطرة في كتاب نشره بالإنكليزية تحت عنوان «النساطرة أو الأسباط المفقودة»، وطُبع هذا الكتاب في لندن سنة ١٨٤١ م، ثمَّ تُرجم إلى الفرنسية وطُبعت الترجمة بباريس سنة ١٨٤٣ م.

أمَّا الأدلة التي يستند إليها الدكتور غرانت والتي أدت به إلى التوصل إلى النتائج المذكورة فيما مرَّ فقد أوردها بشكل مفصل في كتابه ندون فيما يلي خلاصتها:

أولاً ـ إن اللهجة التي يتخاطب بها النسطوريون ما بينهم هي اللهجة نفسها

---

(٩٤) انظر ما تقدم حول سبي اليهود إلى المناطق الجبلية من كردستان.

التي يتكلم بها اليهود القاطنون إلى جانبهم مما يدل على أن كليهما يرجعان إلى أصل واحد وقد جاؤوا إلى منطقة آشور من بلد غريب يتكلم أهله بهذه اللهجة «لغة الترجوم» وهو فلسطين. ويؤكّد الدكتور غرانت أن النسطوريين المسيحيين في أورمية يتفاهمون مع اليهود القاطنين في العمادية بلهجة واحدة بحيث يتعذر التمييز بينهما ـ كما يؤكّد أنه كان يتكلم مع يهود أورمية بلهجتهم السريانية العامية بنفس السهولة التي يتكلم بها مع النساطرة المسيحيين، ويستشهد الدكتور غرانت بأشخاص ذكر أسماءهم يقول أن هؤلاء درسوا اللغة السريانية العامية عند النساطرة وعند اليهود في منطقة كردستان وهم يؤيّدون ما ذهب إليه من أن الفريقين يتكلمان بلهجة واحدة. وينتهي الدكتور غرانت إلى أن هذه حجة قوية لا تقبل الجدال بأنَّ كلا الفريقين ينتميان إلى أصل واحد، أي إلى بلد غريب جاءا منه إلى منطقة آشور، وهذا البلد الغريب هو فلسطين التي كان يهود إسرائيل يتكلمون بهذه اللهجة قبل سبيهم إلى آشور. وهذه هي اللهجة نفسها التي كان يتكلم بها المسيح وهي غير لهجة الكتب المقدّسة وهي اللغة السريانية الكلاسيكية. ويُشير الدكتور غرانت إلى نقطة هي مهمة في نظره، وهي أن النساطرة واليهود في جبال كردستان هم الجماعة التي بقيت تتكلم بهذه اللهجة (الآرامية) السامية القديمة ومعهم بعض أهالي القرى المسيحية في سورية الذين لا يزالون يتكلمون هذه اللهجة ولعلهم يرجعون إلى نفس المنطقة التي جاء منها اليهود أي فلسطين[٩٥].

ثانياً ـ إن يهود كردستان لا يختلطون مع النساطرة ونادراً ما يتزاورون ما بينهم، واليهودي لا يأكل من النسطوري، وهذا دليل آخر على أن النسطوريين المسيحيين واليهود في كردستان يرجعون إلى أصل واحد. فإذا رجعنا إلى التاريخ نجد أن هذه هي نفس العداوة التقليدية بين اليهودية والمسيحية ورثها اليهود والمسيحيون عن أجدادهم على الرغم من رابطة اللغة التي تربط بينهما. ولا يزال اليهود حتى هذا اليوم لا يحجمون عن تعبيرهم عن هذه العداوة كلما يُبحث موضوع المسيحية وصلتها باليهودية[٩٦]، وصلة النساطرة واليهود في كردستان هي أشبه بصلة اليهود بالسامريين في فلسطين[٩٧].

---

(٩٥) A. Grant, «op. cit.,» pp. 153-163.

(٩٦) A. Grant, op. cit., pp. 199-202, 127.

(٩٧) السامريون فئة قليلة من اليهود لا تعترف من التوراة بغير الأسفار الخمسة المنسوبة إلى النبي موسى، وتُعرف هذه الفئة بالسامريين نسبة إلى السامرة وهم يسكنون في نابلس =

ثالثاً ـ إن الشعب النسطوري غريب في علاقته مع القاطنين بجواره، فهو منعزل تماماً لا يختلط مع أي عنصر غير عنصره.

وهذه هي الخصلة نفسها التي يتميز بها اليهود مما يدل على أن النساطرة ورثوها عن أجدادهم اليهود ـ مع العلم أن النساطرة لا يختلطون حتى مع إخوانهم في الدين أي الأرمن ولا يتزاوجون معهم. ومن أبرز ما ورثوه عن الأجداد اليهود أنهم لا يزالون يعيشون على شكل قبائل منفصلة بأسمائها الخاصة كما كانت عليه الأسباط اليهود في فلسطين(٩٨).

رابعاً ـ إن جميع أسماء بطارقة النساطرة تقريباً وأكثر أسماء النساطرة هي أسماء يهودية وردت في التوراة، كذلك أسماء النساء النسطوريات، وهذا ما يدل على صلتهم بالأجداد اليهود(٩٩).

خامساً ـ إن هناك شبهاً وثيقاً بين تركيب جسم النسطوري المسيحي وبين التركيب الجسمي لليهود القاطنين في نفس المنطقة التي يسكنها النساطرة المسيحيون، بحيث لا يستطيع حتى أهل المنطقة أن يميِّزوا بين النسطوري والمسيحي واليهودي القاطن بالمنطقة نفسها، ويؤكِّد الدكتور غرانت بأنَّه هو نفسه لم يستطع أن يميِّز بين النسطوري المسيحي واليهودي في كردستان التي عاش فيها عدة سنوات، ويستشهد بأشخاص ذكرهم بأسمائهم من الإرساليات التبشيرية يؤيِّدون ذلك(١٠٠).

سادساً ـ يذكر الدكتور غرانت أن المرجع الأساس الذي يمكن الاستدلال به على أصل النساطرة هم اليهود القاطنون في نفس المنطقة التي يسكنها النسطوريون، لذلك فقد اتصل بالعديد منهم وخاصة العارفين منهم، فأيَّدوا له أنهم هم والنسطوريون من أصل واحد جاء بهم الآشوريون من فلسطين إلى جبال

(شكيم القديمة) وتوجد لديهم نسخة قديمة من الأسفار الخمسة على رق يدَّعون بأنَّها تُرجع إلى ما قبل عهد المسيح، وهم يرفضون كل ما عداها وما يزالون يتمسَّكون بها حتى اليوم. وقد استقلت هذه الفئة بكيانها الديني، وعمل اليهود على إخراجها من الحظيرة اليهودية، وقد بنت لها هيكلاً خاصاً بها على جبل «جرزيم» عند نابلس واعتبرته بمثابة «جبل الطور». وقد قام بينها وبين اليهود عداء استمر حتى هذا اليوم.

(٩٨) A. Grant, op. cit., pp. 202-206, 194-197.

(٩٩) Ibid., pp. 193-194.

(١٠٠) Ibid., pp. 192-193.

آشور، ثم ارتد القسم الأكبر منهم عن اليهودية وصبؤوا إلى النصرانية بعد وفاة المسيح مباشرة على يد الحواريين. وقد سجل الدكتور غرانت حديثاً بتاريخ ٦ مارت ١٨٤٠ م مع اثنين من العارفين اليهود وهما حزقيال ودانيال من أورمية فأكّدا له بحضور الأسقفين النسطوريين مار يوسف ومار اليا وبحضور نساطرة آخرين أن زمن تحوّل إخوانهم اليهود إلى المسيحية مدوّن لدى الأحبار اليهود في وثائق مخطوطة قديمة فُقدت بتقلب الأحوال ولا يمكن إبرازها، ثم يضيف الدكتور غرانت أن يهوداً آخرين من أورمية أيّدوا له أقوال حزقيا ودانيال كما أيّد له ذلك أيضاً الحاخام الأكبر الذي قابله في الكنيس بحضور مساعديه مؤكّداً أن النساطرة هم من إخوانهم المرتدين عن اليهودية وقد أخذوا بالمسيحية في زمن المسيح أو في زمن حواريه بعد وفاة المسيح مباشرة[١٠١].

سابعاً ـ يؤكّد الدكتور غرانت أن الاعتراف بتحول اليهود المسبيين إلى المسيحية لم يقتصر على اليهود القاطنين إلى جانب النساطرة بل شمل أيضاً النساطرة أنفسهم، فالنساطرة العارفون وحتى عامة النساطرة يعترفون بأنهم من سلالة بني إسرائيل حتى أصبحت تسمية النساطرة وبني إسرائيل تسمية مشتركة لشعب واحد. ويضيف الدكتور غرانت إلى ذلك قوله بأنَّ بعض النساطرة يسمُّون أنفسهم بأهل الناصرة وهذه التسمية تعني عندهم اليهود المرتدين عن اليهودية والمتحولين إلى المسيحية وهي لا تستعمل للدلالة على غير النساطرة بين أصحاب المذاهب المسيحية الأخرى. ويقول الدكتور غرانت أنه شاهد بعض الرسائل للنساطرة موجهة إلى البطريرك المار شمعون يلقبونه فيها ببطريرك جميع أهل الناصرة[١٠٢]. ويذكر الدكتور غرانت أيضاً أن بطريرك النساطرة أكّد له أن العائلة التي ينتمي إليها تنحدر من سلالة نفتالي أحد الأسباط العشرة التي نقلها الآشوريون إلى جبال كردستان، وقد ورد ذكر هذا السبط بالذات في كتابات تجلات بلاشر الثالث (٧٤٦ ـ ٧٢٧ ق.م.) حيث قال إنه استولى على نفتالي وضمها إلى آشور، ومما ذكره البطريرك إلى الدكتور غرانت أيضاً أن هناك وثائق مخطوطة قديمة تثبت ذلك غير أنها غرقت قبل ستين سنة في نهر الزاب مع مخطوطات أخرى قديمة عندما كان يُراد نقلها عبر النهر في فيضانه العالي[١٠٣].

---

(١٠١) Ibid., pp. 126, 240.

(١٠٢) Ibid., pp. 164-170, 195-197.

(١٠٣) Grant, op. cit., pp. 195-196.

ثامناً ـ يقول الدكتور غرانت إن من الثابت أن المسبيين اليهود إلى آشور قد تحوّلوا إلى النصرانية بعد ظهور المسيح على يد الحواريين مباشرة بعد وفاة المسيح، حيث اتجه الحواريون إلى منطقة آشور وقد كانوا يعلمون بوجودهم هناك فأخذوا يبشرون بين إخوانهم في آشور دون غيرهم، لأنَّ الحواريين أنفسهم كانوا مختتنين وكان اتصالهم بغير المختتنين (أهل الغرلة) يُعد عندهم خطيئة آنذاك(١٠٤). هذا مع العلم أن المعمودية حلَّت محل الختان فيما بعد وصارت تجري عند النساطرة في اليوم الثامن من عمر الطفل كما كانت العادة عند الأسباط العشرة كانوا يختنون الأطفال الذكور في اليوم الثامن من العمر أيضاً(١٠٥).

تاسعاً ـ كان مركز البطريرك عند النساطرة مركز الربيين أنفسهم الذي كان سائداً بين الأسباط العشرة، فكان البطريرك يرأس المجامع الدينية ويفرض القصاص وسلطته ممتدة من الإله(١٠٦).

عاشراً ـ إن العادات الاجتماعية والحياة اليومية عند النساطرة من حيث الحرفة والطقوس واللباس والزينة والزواج والضيافة والثأر بين القبائل وما إلى ذلك من الاحتكاكات اليومية في المجتمع النسطوري هي نفسها كان يمارسها الأسباط العشرة في فلسطين(١٠٧).

وقد زار الأب ساوثكيت منطقة كردستان واطلع على أعمال المبشرين الأمريكان بين النساطرة فوصف مدارسهم وقال أن الدكتور غرانت اكتسب شهرة واسعة بين الأكراد والنساطرة كطبيب ناجح وكانوا يسمونه «حكيم صاحب».

حادي عشر ـ إن الكتاب المقدّس يشير إلى أن التبشير بالمسيحية بين الأسباط العشرة قد تمَّ في عصر الحواريين وما بعده إذ جعلت أولى مهمات

---

(١٠٤) كان أهل الختان من اليهود يعتبرون الاتصال بأهل الغرلة خطيئة بدليل النص التالي الوارد في الكتاب المقدّس: «فلما صعد بطرس إلى أورشليم خاصمه الذين من أهل الختان قائلين إنك دخلت عند رجال قلف وأكلت معهم» (أعمال الرسل ١١ : ٢ ـ ٣). Ibid., p. 224.

(١٠٥) Grant, op. cit., p. 191.

(١٠٦) Ibid, p. 197.

(١٠٧) H. Southgate, «Narrative of a Tour Through Armenia, Kurdistan, Persia and Mesopotamia, London, 1840, Vol. I, pp. 301-311.

الحواريين التبشير بين الأسباط العشرة فقط (انظر أعمال الرسل ١٠: ٣٦، ٢٦: ٦ ـ ٧)[١٠٨].

ثاني عشر ـ إن هناك اثباتات قاطعة أن الأسباط العشرة كانوا موجودين في حدياب (آشور) في القرن الأول للميلاد، ففي خطاب هيرودس غريبا ملك فلسطين في عهد الأمبراطور كاليجولا والأمبراطور كلوديوس (٣٧ ـ ٥٤ م) الموجَّه إلى يهود فلسطين ما يؤيِّد ذلك حيث كان في جملة ما قاله في خطابه: «إن إخوانكم في حدياب لا يستطيعون أن يمدوكم بأية مساعدة لأن الفرثيين لا يسمحون لهم بذلك». كما أن يوسفوس الذي عاش في القرن الأول للميلاد يؤكِّد بكل وضوح أن الأسباط العشرة كانوا إلى ذاك اليوم في البلد الذي نقلوا إليه أسرى فيما وراء الفرات. كما جاء في التوراة التي كتبت في وقت متأخر ما يؤيِّد ذلك أيضاً «فسبي إسرائيل من أرضه إلى هذا اليوم». (٢ مل ١٧: ٢٣)[١٠٩].

ويرى العلامة الدكتور نيوزنر صاحب كتاب «تاريخ اليهود في بابل، إن الدلائل التي أوردها الدكتور غرانت في دعم الرأي القائل بأن النساطرة هم في الأصل من اليهود الذين نفاهم الآشوريون إلى منطقة كردستان ثم صبؤوا إلى النصرانية بعد ظهور المسيح تقيم حجة قوية لتقبل هذه النظرية، ويؤكِّد أن أتباع كنيسة الشرق كان معظمهم من اليهود المتنصرين الذين انضموا إلى النسطورية[١١٠] ويضيف نيوزنر إلى ذلك قوله «إن أول المتنصرين في الشرق كانوا من بين اليهود»[١١١]. ويؤكِّد ذلك الأب أدي شير فيقول في كتابه «كلدو وآثور» (ج٢ ص ٨) «إن أول جماعات نصرانية قامت في بلادنا تألَّفت من اليهود».

ويؤكِّد القس بطرس نصري الكلداني في مقاله عن أصل النساطرة المنشور في المشرق م١٦ (١٩١٣) (٥٠٠) كون أصل قبائل جيلو الآثورية من اليهود الذين سباهم الآشوريون إلى بلاد آشور بقوله: «وفي جنوب غربي كوار توجد جبال شامخة وأودية وعرة وعميقة تسمَّى داسان العليا وهناك يسكن أهل جيلو ويبلغ عددهم أكثر من ١٥٠٠ بيت ولهم أسقف يسمَّى مار سركيس وأكبر قرية في جيلو هي زيريني ويجلس فيها رئيس جيلو المدعو بملك. وروى بعضهم أن سكان

---

(١٠٨) Grant, op. cit., p. 224

(١٠٩) . Ibid, pp. 222

(١١٠) . J. Neusner, op. cit, Vol. III, pp. 15-16

(١١١) . Ibid, Vol. I, p. 183

جيلو هم من جنس اليهود وفي سحنتهم ولونهم شبه بلون اليهود ومعنى اسمهم الجالية ولا يبعد أن يكون أصلهم من اليهود الذين كانوا قد سبوا إلى نينوى في سالف الأزمنة. وهؤلاء يقضون حياتهم غالباً في المهاجرة وقليلون هم الذين يشتغلون في بلدهم - إذ ليس لهم مكان يتمكنون فيه من الزراعة وتربية الغنم والمواشي، وقسم كبير من سكان جيلو مع ملكهم هم كاثوليك.

وأهم من كل ذلك أن هرمز رسام وهو آثوري تجنَّس بالجنسية البريطانية وكان يمثل الآثوريين في الأوساط السياسية الدولية يعترف بكل صراحة أن الآثوريين جاؤوا في الأصل مع اليهود من أور الكلدان[١١٢].

---

(١١٢) (سجلات وزارة الخارجية البريطانية) Fo 371/ 16889/ 1538/ 7/ 93,23/ 3/ 33.